المجلس الاعلى للثقافة في مصر يدعو لانشاء هيئة للمعلومات:

متخصصون يدعون الى احياء الاتفاقية الخاصة بالشبكة العربية للمعلومات التي اقرت عام 1988

القاهرة ـ «القدس العربي»
ـ من محمود قرني:

عقدت لجنة الكتاب والنشر مائدتها المستديرة التي اشتملت اوراقا بحثية لحوالي خمسة عشر باحثا ومتخصصا حول «السياسة الوطنية للمعلومات في مصر» التي جرت وقائعها بقاعة المؤتمرات بالمجلس الاعلى للثقافة، وقد افتتح المائدة الدكتور شعبان خليفة استاذ علم المكتبات وعضو مجلس ادارة مكتبة الاسكندرية ودار الكتب والوثائق القومية والدكتور جابر عصفور الامين العام للمجلس الاعلى للثقافة ومحمد حمدي مدير عام مكتبة القاهرة.

وقد كان الافتتاح مؤكدا على اهمية ان تنتظم المؤسسات المصرية سياسة واضحة ومخططة للنظم المعلوماتية وكذلك بلورة مفاهيم واضحة حول اهداف استخدام المعلومات، لا سيما وان العالم يمر بمرحلة مهمة تلعب فيه المعلومة دورا حيويا وخطيرا تجاه سياسة اتخاذ القرار، سواء كان ذلك ماسا بالجانب المجتمعي او السياسي والاقتصادي.

وقد كانت اولى الاوراق البحثية مقدمة من الدكتور احمد بدر حول «السياسة المعلوماتية: دراسة في المفاهيم والاطر ومناهج البحث»، حيث تناول الدكتور بدر لعدد من التعريفات المتعلقة بسياسة المعلومات «كقوة تشكل المجتمع» مؤكدا ان «السياسة المعلوماتية هي التي تدلنا على مجموعة القوانين والقواعد والتوجيهات التي تدير دورة حياة المعلومات بما تتضمنه من تخطيط وانتاج وجمع واتاحة وبث واسترجاع، وذلك بناء على التطور الاقتصادي المحلي والعالمي». ويشير الدكتور احمد بدر الى ان اهم اهداف السياسة المعلوماتية هو تحقيق بنية اساسية للاتصالات والارتفاع بمستوى الانتاجية والتنافس ومستوى التعليم والتدريب فضلا عن تحقيق التماسك الاجتماعي.

وقد حاول الباحث الكشف عن التأثيرات المباشرة للسياسة المعلوماتية على القطاعات الاجتماعية والتعليمية والثقافية والسياسية والاقتصادية، وكذلك كان من بين توصياته المهمة التأكد من ان السياسة المعلوماتية تتدخل مباشرة لمعالجة القضايا التي لها الاولوية على المستوى الاجتماعي وكذلك دور تكنولوجيا الاتصالات والمعلومات فضلا عن اهمية التجانس العربي لمواجهة التكتلات الاقتصادية العالمية.

سياسة المعلومات في مصر والعالم العربي ومشكلاتها القانونية

اما الدكتور احمد محمد عبد الباسط فقد تناول في ورقته الموسومة «نحو اطار عام للسياسة الوطنية للمعلومات في مصر» دور المعلومات في لحظتنا الراهنة لا سيما في الانشطة المختلفة للبحث العلمي، ثم استعرض اهمية المعلومات وعلاقتها بالتنمية، ثم ركز الباحث على ضرورة وضع اطار عام للسياسة الوطنية للمعلومات بما في ذلك الجذور الاساسية لهذه السياسة ومتطلباتها من اجل التطوير.

على جانب آخر تناولت الدكتورة سيدة ماجد التجربة المصرية والسورية والليبية في هذا الاطار مع تأكيدها على اهمية وجود سياسة عربية واضحة وموحدة للمعلومات من خلال مراكز المعلومات القومية ومن خلال ما تقدمه الجامعة العربية في مشروعها المعروف عن الشبكة العربية للمعلومات الذي تم تنفيذه عام 1988 لكنه لم ير النور حتى الان.

اما الدكتور حسام لطفي فقد عالج في ورقته المشكلات القانونية للمعلوماتية من خلال استعراضه لاحكام اتفاقيتي المنظمة العالمية للملكية الفكرية (WIPO) في مجال حقوق المؤلف (WCT) وحماية الادارات والتسجيلات الصوتية (WPPT)، ثم استعرض الاطار القانوني لحماية اسماء (الدومين) باعتبار هذه الوسائل هي الوسائل الاساسية للدخول على شبكة المعلومات.

وقد تناول الباحث بعض المشكلات المترتبة على استخدام الحاسبات في مجال الاتصالات، والنتائج المترتبة على ذلك من ان اصبحت المصنفات والاداءات والتسجيلات تأتي لان شخصا في اي مكان ما دام مؤهلا لذلك يستطيع الوصول بوسائل تقنية مثل الهواتف المحمولة وشاشات الحاسبات واجهزة نقالة تتيح المشاهدة والقراءة والمتابعة.

كما انهى الباحث ورقته بابراز الاثر المهم للتكنولوجيات الحديثة وما تفرضه في مجال حقوق المؤلف والحقوق المجاورة من تحديات، وهو ما يستدعي عدم اللجوء الى استحداث وسائل جديدة لمواجهتها الا بعد استنفاد الجهد في تطويع الوسائل الحالية للمواجهة، ويؤكد الباحث في النهاية ان اتفاقيتي WIPO وWPPT هما خطوتان ايجابيتان على طريقة الحماية المستدامة لحقوق المؤلف والحقوق المترتبة عليها.

اما الباحثة «عزة سلطان» فقد اشارت في ورقتها الداعية الى انشاء هيئة وطنية للتخطيط لنظام وطني للمعلومات الى ان التطور الحديث دفع الانسان لتطوير ادواته لا سيما في حقل نقل المعلومات، وهو ما دعى هيئة اليونسكو الى الدعوة الى وجود نظام وطني للمعلومات في كل بلد على حدة، وقد حاولت الباحثة رصد بعض التجارب المصرية في هذا السياق، كما توقفت امام القيود التي تحول دون تدفق المعلومات ذات الطبيعة الخاصة التي يمكنها ان تساهم مستقبلا في انشاء مثل هذه الهيئة المنشودة.

من اليمين شعبان خليفة، جابر عصفور وعمر حمدي (القدس العربي)

الملكية الفكرية والتعدي على حقوق الغير

من الاوراق اللافتة، الورقة المقدمة من الباحث نبيل فرج التي تناولت الملكية الفكري والتعدي عليها في مجال المعلوماتية وتكنولوجيا الاتصالات واخذ «لبنان» نموذجا. ورأى ان القوانين المنظمة لحقوق الملكية الفكرية لازالت بعيدة عن القدرة على ملاحقة الثورة الضخمة في هذا المجال.

ويؤكد نبيل فرج انه بسبب عدم الملاحقة وافتقاد القدرة عليها وكذلك غياب الردع القانوني، فقد ارتكبت العديد من الجرائم في حق الملكية الفكرية، ولازالت ترتكب.

واشار الى ان مصر اعتبرت حتى عام 2000 صاحبة افضل معدل في تقليل عمليات القرصنة في العالم، وذلك نتيجة الاتفاقيات التي عقدتها الحكومة المصرية مع الشركات العالمية لشراء برامج باعداد ضخمة للمدارس والجامعات والقطاع الحكومي، وزيادة فاعلية جهاز الرقابة على المصنفات الفنية.

ويرصد فرج الدول التي استندت الى قوانين لحماية حق المؤلف حيث يذكر انكلترا التي اصدرت اول قانون في هذا الصدد عام 1911 تلتها فرنسا في 1925، ثم الدنمارك عام 1927، لكنه يشير في الوقت نفسه الى انه قد عثر على نص للكاتب اللبناني نجيب الحداد الذي ولد في 1867 ورحل في 1899، تحت عنوان «حق ضائع» يدافع فيه عن الملكية الفكرية وقد نشرته الصحف المصرية في اواخر القرن التاسع عشر.

ويبرر نبيل فرج اختياره لبنان نموذجا بانه بلد يغلب عليه الطابع التجاري، وكذلك الاغارة على الامانة العلمية والدقة «ذلك ان اعمال القرصنة الصريحة والمستترة التي تروى عنها، وفي مقدمتها تزوير الكتب، يفوق ما يروى عن اي قطر عربي آخر».

ثم يستعرض نبيل فرج القانون الصادر في لبنان عام 1999 بشأن قانون حماية الملكية الفكرية في لبنان والذي يتعامل مع برامج الكمبيوتر تعامله مع انتاج العقل البشري الذي يعد ابتكارا خاصا لصاحبه، ويعد الاعتداء عليه جريمة مكتملة الاركان.

المكتبات العامة وسياسة المعلومات

اما الدكتورة نبيلة جمعة فقد تناولت في ورقتها البحثية «دار الكتب المصرية والضبط البيليوغرافي القومي» واعتبرت ان هذا الضبط لاوعية المعلومات الصادرة في العالم مطلب ملح وحلم يسعى الجميع الى تحقيقه، كما اشارت الى ان برامج الفهرسة اثناء النشر باعتبارها خرجت من عباءة الضبط البيليوجرافي القومي رغم انها جزء منه.

وتقوم فكرة الدكتورة نبيلة على اعداد بطاقة غير مكتملة للوعاء قبل صدوه، على ان توضع نسخة من هذه الطاقة في الوعاء نفسه عند طباعته وتوضع نسخة اخرى في ادوات الضبط البيليوغرافي السابق ذكرها، وترى الباحثة ان نظام الفهرس يساعد اثناء النشر في الارتفاع بمستوى الفهرسة في المكتبات الصغيرة وكذلك توحيد الممارسة على مستوى الدولة، وتسويق الكتب واحداث رواج في سوق النشر.

وتشير الباحثة الى ان الوضع في دار الكتب المصرية انها تتولى مسؤولية الضبط البيليوغرافي في مصر منذ ما يقرب من خمسين عاما، ولكن الدار لم تفكر في تبني برنامج للفهرسة اثناء النشر في مصر، واعتبرت الباحثة ان هذا ليس ضمن مسؤولياتها رغم انها المرشحة الاولى بل وتكاد تكون الوحيدة للقيام بهذا الدور.

كما تناول الدكتور موريس ابو السعد نموذج مكتبة مبارك العامة، كنموذج رائد في مجال الاتصالات وتكنولوجيا المعلومات، حيث وضعت ادارة المكتبة خطة لثلاث سنوات مقبلة لتطوير نشاطها في مجال تنمية القوى البشرية وخدمات المعلومات.

كما تضمنت المائدة عدة اوراق بحثية اخرى للدكتور محمد فتحي عبد الهادي الذي تناول السياسة الطموحة التي يجب اتباعها في مجال اعداد اخصائيي المكتبات والمعلومات.

وكذلك البحثان المقدمان من الدكتور حامد الشافعي، والدكتورة سهير محفوظ حول التنمية المهنية للقوى العاملة في مؤسسات المعلومات، وتنمية القوى البشرية في مكتبات الاطفال.

اصدارات مغربية

دراسات حول أطروحات تاريخية استعمارية

الرباط ـ «القدس العربي»:

صدر كتاب «دراسات حول أطروحات تاريخية استعمارية.. المغرب نموذجا» لعبد العزيز خلوق التمسماني الطبعة الاولى سنة 2002.

ويعالج المحور الاول للكتاب الواقع في 95 صفحة من القطع المتوسط مواضيع تتعلق بالمرحلة الجهادية لمحمد بن الكريم الخطابي مبرزا مظالم إسبانيا وجبروتها في منطقة الريف من خلال عدة متون. أما المحور الثاني للكتاب فيميط اللثام عن مجاهدي المناطق الجبلية كما يسلط على قادتها المغمورين الذين وجهوا ضربة قوية للمحتل الايبيري.

وقد عزز الباحث الذي يشتغل أستاذا لمادة التاريخ المعاصر بكلية الآداب بتطوان كتابه باستشهادات من عدة وثائق ومخطوطات من ذلك وثيقة حول القصر الكبير لمحمد أخريف ومخطوط «عمدة الراوين» لأحمد الرهوني.

«اليك» لسهام بنشقون بالفرنسية

■ أصدرت سهام بنشقون ديوانا شهريا تحت عنوان «إليك» باللغة الفرنسية عن منشورات «أومبرانت».

ويحتوي هذا الديوان الشعري على مجموعة من القصائد الشعرية نشرت باللغة الفرنسية، واللغة العربية، حيث ساهم صلاح الدين الوديع في ترجمة هذه القصائد.

ومن بين هذه القصائد نقرأ العناوين التالية : «بارقات»، «قصيدة لأجلنا»، «شموس البهاراتك»، «صفحة فارغة»، «هواجسك»، «النسيان»، «ضفتك»...

ومن قصيدة النسيان نقرأ هذا المقطع الشعير التالي : أن أموت كما أنسى، وأكف عن الادراك/ أنك كل شيء كنت ولم تعد/ وأن الحياة أخرست أنشودة أسرارنا/ وأن بابي لن يفتح أبدا على خطاك/ ولا صرخاتي في حضنك، مجدا لاسمك/ لاسمك/ ولا عبراتي يا حبيبي تمسحها يداك/..

«فرسان الخيول الميتة» جديد محمد المرابطي

■ بعد سبع سنوات من الغياب، عاد القصاص المغربي المبدع محمد المرابطي بمجموعته القصصية الاولى، هو الذي عرف أساسا بقصته «بغل البلدية» في الثمانينات..

المجموعة القصصية اختار لها عنوان «فرسان الخيول الميتة»، صدرت ضمن منشورات وزارة الثقافة، في 87 صفحة من القطع المتوسط.

النصوص تستمد لغتها من اليومي، وهي قراءة للواقع بعين القاص الذي ينمق التفاصيل ويزركشها باللغة، بكل ثقلها وتموجاتها، وكثيرا ما يتداخل النص التاريخي مع الحكي الآني الغرائبي.

«ثمار الحب» مسرحية من ثلاثة فصول

■ ضمن مطبوعات النجاح الجديدة، صدرت مسرحية من ثلاثة فصول لصاحبها عبد الرحمان الطاهري الجوطي الحسني، بعنوان «ثمار الحب».

المسرحية التي تقع في 110 صفحات من القطع المتوسط، يتمحور موضوعها حول ما تتعرض له الفتيات– الأمهات، من مشاكل اجتماعية.. وتدور أحداثها في ملجأ خاص بالفتيات، حيث تحاول أن تعكس مشاكل الأمومة المغتصبة، دفاعا عن الأم والطفل..

النواب ومختار في امسية شعرية موسيقية في زيورخ:

هم عربي وحزن عراقي «مؤبد»!

زيورخ ـ «القدس العربي»
ـ من جواد الساعدي:

أقام المركز الثقافي العربي السويسري في زيورخ ـ سويسرا مساء السبت الموافق 2/2/2002 أمسية موسيقية شعرية للشاعر الكبير مظفر النوّاب والفنان أحمد مختار، وذلك على مسرح قاعة بيت الثقافة في مركز المدينة، وقد غصت القاعة بالحضور العربي والسويسري حيث حضرها جمهور غفير من العرب المقيمين ومجموعة كبيرة من الفنانين والشعراء والمثقفين السويسريين، بينهم الشاعرة إيلما راكوزا أستاذة كرسي الأدب الحديث في جامعتي زيورخ وبرن.

افتتحت الأمسية بكلمة لرئيس المركز الشاعر العراقي علي الشلاه، رحّب فيها بالحضور باللغتين العربية والألمانية ثمّ قدّم الفنان مختار قائلاً عنه «انه فنان لا يحتاج إلى الثناء، بل إلى الإصغاء» وبعد أن عزف مختار مقام شرق رست نال إعجاب الحاضرين من العرب والسويسريين قدّم الممثل السويسري باول دورن ثلاثاً من قصائد النوّاب كان ترجمها إلى اللغة الالمانية الشاعر السوري أكثم سليمان هي: في الحانة القديمة، آدم حاتم، والمخبر، يرافقه في ذلك عود مختار، حيث نالت طريقته في العزف مع القصائد باللغة الألمانية إعجاب الحاضرين من السويسريين، فضلاً عن العرب، بينما نالت طريقة إلقاء الممثل السويسري دورن لقصائد النوّاب إعجاب الجمهور العربي وإعجاب النوّاب نفسه الذي عبّر عن ذلك لدى إعتلائه المنصّة بقوله أمام الجمهور: «كنت أشعر أنني أنا من كان يقف هنا وراء هذه المنصة».

سبق إعتلاء النوّاب للمنصة تقديم من علي شلاه عن النوّاب، قال فيه: «هذا شاعر لا ينصفه شيء» ثمّ خاطبه قائلاً: «أيها الكبير أبا عادل: تفضل فإن قصائدك خير من يتحدث عنك».

ولدى نهوض النوّاب ضجت القاعة بالتصفيق الحاد ووقف الحضور وتقديرا للشاعر، الذي طالما عبّر عمّا يدور في «الخلجات المنوعة» على إمتداد الوطن العربي من المحيط إلى الخليج وشكّل لجماهيره رمزاً للثبات في مواجهة القمع والإرهاب والتسلّط.

تنقّل النوّاب في قراءاته بين القديم والجديد من قصائده وبين ما هو بالعربية الفصحى وما هو بالعامية العراقية فكان يبكي الحاضرين تارةً بما يكتنزه المقطع الواحد لديه من شحنات عاطفية تصدم المتلقي وتفجر لديه حزناً دفيناً بين دفتي غربتين، غربة الوطن ووطن الغربة.

وتارةً أخرى كان يضحكهم، حتى قبل أن يمسحوا دموعهم، بسخريته اللاذعة التي يقف وراءها حسٌ صادق وعينٌ شاعرية لاقطة تذهب بعيداً في تفاصيل الحدث وتقدمه بصور شعرية مختصرة، لكنها مكثفة، لاهبة، قادرة أن ترفعك من مكانك إلى الفضاء البعيد ثم تتركك وحيداً ترتطم في الأرض ليتحرك فيك الراكد ولا يركد فيك، أبداً، ما هو متحرك.

لم نكن نشعر، نحن الحضور، أن مظفر النوّاب كان مجرد شاعر يقف وراء المنصة، بل كان صقراً، يوسع السماء بجناحيه، ويحملنا عليها فيأبى أن يحط بنا على جيف الذل والتخاذل، كان تعبيراً حياً عن نبض عربي وإنساني يمتلك إصراراً طفولياً على تدمير عالمنا المشوه وإعادة تشكيله ناصعاً كقلوب الأطفال:

«اللهم ابتدىء التخريب الآن
فإن خراباً بالحقّ، بناءٌ للحق
هذي الأمةُ
لابدّ لها أن تأخذ درساً
في التخريب»

في أمسيات مظفر النوّاب لا يمكن أن يخيّم الصمت على الحاضرين، ليتسرب إليهم الملل بانتظار لسعة ما باردة في خواتيم القصائد كما هو معهود في الكثير من الأمسيات، فكلماته لسعات حارة، ومقاطعه قصائد تثير إرتجاجاً، وقصائده ملاحم وأمواج تنحت المتصخر وتسقي المتصحر، أمّا دموعه واختناقه بالعبرات وهو يلقي قصائده عن محمد الدرة وسليمان خاطر أو خالد أكر، فشرطها «حدّ الجفن» لأنها دموع شامخ فخور بأبطال أمته، لا دموع مترحم يائس.

وتضفي الطريقة المميزة التي يلقي بها النوّاب قصائده جمالية فريدة من نوعها على الشعر إذ يقدم بعض المقاطع بطريقة «ممسرحة» لكنها منسابة، عفوية، تلقائية، مطلقة إلى حد بعيد، ويقدم بعضها الآخر مغنّى بصوته الشجي المشحون بالطرب الحزين يعزز ذلك ثقافته الفنية الواسعة ومعرفته بالإيقاعات الموسيقية، وهنا يأتي التناغم والمحاكاة بينه وبين عود مختار الذي رافقه على مدى ساعتين عزفاً على العود، حيث كانت ريشته تكيّف الأوتار وتصدح بالأنغام فترفع درجة التوتر والإنشداد للشاعر، وربما تلهمه في إختيار بعض القصائد.

لقد كان ذلك سباقاً بين تفعيلة الشعر و«تفعيلة» الموسيقى، لكنه ليس سباق التوازي بل سباق للتلاقي، سباق يتعانق فيه الهم العربي ويتعانق فيه الحزن العراقي.

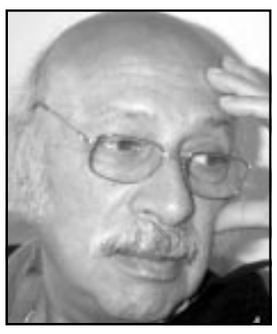

مظفر النواب

شذرات

فائض الحرمان!

خيري منصور *

■ اذا كان فائض الثروة قد انتهى الى الاستبداد والاستعباد، واغرى الرافلين في النّعيم بالبطالة، حتى تحول العمر كله الى عطلة مديدة. فان فائض الفقر قلما اجتذب الباحثين، في اشد الظواهر اشكالية وتعقيداً، لكأن الفقر كالفوضى لا يقاس، ويكفي ذكره لكي يشمل عالما سفليا متجانساً. هنا، لن نتحدث عن الفقر، او حتى نصفه، فقد قتلته الاحصاءات، والجداول، مثلما ضاعف من وجوده من حاولوا تحذير الفقراء ليستيقظوا بعد غيبوبة طويلة على فقر اشد ادقاعاً ويتحولون بحق الى «مُعدمين».

وكان احد خبراء البنك الدولي وهو منكود الحظ، لم يستطع التأقلم مع امبراطورية الفساد فاعلن العصيان بالاستقالة، قد قال ساخراً ان افضل علاج للتخلص من الفقر في العالم هو قتل الفقراء!! ولم يكن الفقراء قد قرأوا هذا الخبير، ولعلهم لم يقرأوا ايضا رأس المال، او كل ما يكتبه المستريحون عنهم، فالمسألة لاتعدو عن كونها ثنائية خالدة، ينتج فيها فائض العافية، فائض الانيميا، مادام الجدل على اشده بين الحالب والمحلوب، لكن لصالح الاول بالطبع، الذي لا يكّف الا بعد جفاف الضروع كلها! وذات يوم سخر البير كامو من الفيلسوف الالماني شوبنهاور، الذي كان يعظ بالزهد، وهو يجلس الى مائدة تعج بالاطايب، لهذا فان كل تنطع لفائض الفقر في بلادنا ينبغي ان يكون مسبوقا باحتراز ومتبوعاً باعتذار، لان من ينتدبون انفسهم لفحص ظاهرة الفقر هم على الاغلب اما انهم تجاوزوا فقرهم حتى بات ذكرى شاحبة او انهم تخيلوّه، وعالجوه فلوكلورياً، تماماً كمن يجلس قرب المدفأة، ويقرأ رواية تدور احداثها في سيبيريا.

***

ان فائض الفقر والحرمان لايكون مرئياً وقابلاً للرّصد، لأنه يتجاوز الحدّ الاقصى في البارومتر، ويفلت من اية احصاءات، لأنه يصبح مبثوثاً في سايكولوجيا مقهورة، مسكونة بالحذر الذي يفضي حتماً الى التعثر، وقد يكون من الاجدى في هذا السيّاق، استبدال التجريد بالمحسوس، وهذه بضع امثلة قد يرشحها التكرار لأن تتحول الى امثولات! اذا اعتبرنا الموظف الصغير في الوطن العربي فقيراً يعيش على تخوم المجاعة، فإن تكوينه النفسي يتحول بالتدريج الى تلك الحالة التي رصنها (موريس) في كتابه «القرد العادي»، ان الحلقة المفقودة في نظرية التطور لداروين.

هذا الفقير الذي يتصاعد وعيه الاستهلاكي في عصر تغرق فيه الصحف والشاشات بلعاب الجياع على ما يعرض من سلع عصيّة، يزداد تشبثه بوظيفته، ويتأقلم مع مزاج مدرائه، حتى انه كما يقول «موريس» يضطر الى تقصير قامته اذا كان طويلاً امام مديره، واحياناً يضمخ ذكورته بشيء من الأنوثة ـ ان كان رجلاً ـ لكي يبدو طيعاً وظفيف الحضور امام رئيسه.

ان فائض الفقر هو المقدمة العضوية لفائض الحرمان، فالحرمان يتطلب استشعاره ووعيه درجة من الثقافة الاستهلاكية، لهذا لم يكن فقير الخمسينات من القرن الماضي هو نفسه فقير هذه الايام. وقد يصنف اي شخص لا يملك سيارة او ستالايت وهاتفاً متنقلاً، فقيراً بمعيار هذا الوقت، والتصاعد المحموم للاستهلاك هو المسؤول قبل أي شيء آخر عن «فائض الحرمان».

ان الهلع الذي يفجره فائض الفقر في الذات المقهورة، يدفعها الى محاولة اتقاء المستقبل، لأنه سيكون حرماناً مضاعفاً اذا اضيفت اليه الشيخوخة، وهنا تجد نزعة الادخار لدى الفقير الخائف مجالاً لمزيد من الشّحذ، انه يصبح كذلك الموظف المحترم الذي عالجه نجيب محفوظ في رواية «حضرة المحترم»، ينفق عمره كله لضمان الايام الاخيرة من عمر، لم يقدر له ان يقطعه حتى النهاية! فائض الحرمان، يستولد لدى المنكوب به عقدة لم ترد في المعجم الفرويدي، وقلما تطرق لها المشتغلون في علم النفس ـ الاجتماعي، هذه العقدة هي ما اطلق عليها برنارد شو اسم عقدة اللااستحقاق وتتلخص في كون المصاب بها يستكثر اي شيء على نفسه، ويشعر بالمديونية التي قد لا يقوى على تسديدها.

ويبدو ان انظمة الحكم (الباتريركية) ادركت هذه العقدة بفطرتها فعزفت عليها أسوأ لحن يمكن الاصغاء اليه. واذا كان لا بد مثال فلّيكن من الحقل الثقافي، ففي معظم العواصم العربية، قفز ادباء وكتاب الى مناصب متقدمة في ادارة الثقافة وبيروقراطيتها، ولم يكن الابداع شرطاً لتحقيق هذا الفوز، وهنا تلعب عقدة اللااستحقاق دور البطولة في ابتزاز اللامستحق حتى آخر قطرة، واذا اخترنا الحقل الثقافي لهذا المثال، فليس لأنه الوحيد، فالحقول الاخرى حتى الاقتصادي والطبي منها لم تسلم من استثمار البيروقراطية لهذه العقدة، لكن الثقافة تعيننا في طرح الامثلة اكثر من سواها لأنها في الواجهة، ولأن المثقفين ذوو تواريخ شخصية معروفة.

***

ان فائض الحرمان، يضيف الى عقدة اللااستحقاق حالة مرضية «ماسوشية»، بحيث يستمرىء الانسان المنكوب آلامه، ويدمنها، واحياناً يطلب جرعات اضافية منها. وحين تتحول هذه الحالة من مجرد امثلة فردية متباعدة الى ظاهرة شبه عامة، يكون المجتمع برمته قد تعرض الى خطر الانتحار، وقد تكون كتابات جيفارا عن زائير مفتاحاً مناسباً لقراءة اوضاع اجتماعية واقتصادية ونفسية تسرطنت عافيتها حتى اعيت اهم الاطباء واكثرهم خبرة ومهارة، فائض الحرمان يهبط بالمقاييس كلها الى الحدود الدنيا او ما دونها، بحيث يصبح القليل كثيراً اذا قورن بالعدم، وقد تحسد الضحية جارتها لأنها ظفرت برغيف واحد اكثر منها، وهنا تتجلى الرّثاثة بين المصابين بفائض الفاقة والحرمان، انهم بدلاً من التعرف على السبب الذي يخصهم جميعاً، يتآكلون، ويجلد بعضهم البعض الآخر، تماماً كالخراف التي تعض بعضها وهي تقف في طابور امام المسلخ!

***

في واحدة من اكثر الدراسات الميدانية ادانة للنظام الاجتماعي، توصل الطاهر بن جلون في ذروة العزلات الى نتائج مثيرة، ففائض الحرمان والتهميش يؤدي الى خلل عضوي في الكيان الآدمي، كضمور الاعضاء الجنسية مثلاً، بسبب فائض الكبت، لكن الضمور ليس دائماً مرئياً، ويمكن رصده، انه يصيب الدماغ والقلب، ويشقي الوجدان، وباختصار تنعطي البوصلة، وتتداخل الجهات كلها، ويصبح من المتعذر الفصل بين القبيح والجميل، او بين النهار والليل. ماذا كانت الابقار تفقد ألوانها تحت هيمنة الظلام كما يقول هيجل، فإن ليل التاريخ ايضاً يلقي عباءاته السود على البشر، من هنا كان مصطلح التنوير بالغ الدقة، عندما يراد به اضاءة الليل، والبحث عن الفروق، وبالتالى عن حق الانسان في الاختلاف.

فالامتثالية، والقَطْعنة، هما من افراز ذلك الليل المديد، وقد يكون المحررون هم الاشد حرصاً على حراسة التقاليد العمياء والاشد تصدياً لكل مغامرة او مشروع في التشك بما يعتقدون انه جنّة اليقين! ان العلم ذاته يصبح لدى من يعانون من فائض الحرمان جهلاً مقنّعاً، او وعياً معكوساً، لأنه علم للتحايل على الواقع، وتهريبه، وبالتالى البحث عن مسوّغات لعدم المواجهة. وهذا العلم الذي لا ينتفع به، قد يكون أنكى من الجهل، لأنه يوهم صاحبه بأنه لم يعد بحاجة الى اي كشف، وانه كليّ المعرفة، لأنه في الحقيقة خارجها، وعلى هامشها!

***

أنقول أيضاً بأن الحرمان خلق هذه الفراديس الوهمية واليوتوبيات التي لا تقبل الترجمة الى واقع؟ هل أدى مثلاً تحريم الحبّ وتجريم العاشق إلى هذا الفائض المترهل من الأغاني العاطفية؟ كيف يمكن لشاعر ان يقول لامرأة: انه لا يريد أن يأكل أو يشرب، ويكفيه أن يقضي العمر وهو يحدق إلى وجهها؟ ولم تكن حياتنا لتنزلق إلى هذا التجريد لولا تلك الرافعة الوحشية التي تضاعف من الحرمان، احدى الاغاني العربية الاكثر شيوعاً تقول كلماتها.. ان العيب في المحبين وليس في الحب، أليس هذا هو المرادف العاطفي والنفسي لخطاب سياسي افرز مأمورية الزّير وشقيقاتها، حيث تتم تبرئة الزعيم، وتلقى التبعة كلها على الحاشية الفاسدة؟ أليس تمجيد العربي كجنس ولغة، كان على الدوام مقترناً باحتقار العربي كإنسان تتجسد فيه تلك المفاهيم! ان من يمتدحون الصدق هم الذين يعاقبون الصادق، ويعظونه بالحيلة ان كان فاقدها تماماً كما ان كل الهجاء الذي يتوجه الى الفساد كمفهوم مجرد ينقلب بضربة ساحر الى مديح للفاسدين! ولو شئنا الاستطراد، لتقصي هذا التجريد الذي يمكن لنا ان نسميه وقائياً، لما انتهينا، فمن يبالغون في الثناء على الشّعر لأنه ديوانهم ينكلون بالشعراء. ومن تغزلوا بالمرأة حتى عبدوها، هم الذين يعذبونها عندما تصبح كائناً متجسداً بين ايديهم ان فائض الحرمان والفقر، مطرود من الحواسب ولا مكان له في احصاءات مراكز البحوث والبنك الدولي، لأن تجلياته مبثوبة في تفاصيل بالغة الدّقة في الحياة اليومية.

وقد يعثر احدنا ذات مقاربة اقل تحفظا على قواسم مشتركة بين عدة فوائض. فائض الحرمان، وفائض الديكتاتورية، وفائض الجهل!

---

* شاعر وكاتب من الاردن